مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ١٣: ٧-١٦)

يا إخوةُ اذكروا مدبِّريكم الذينَ كلَّموكم بكلمةِ الله. تأمَّلوا في عاقِبَةِ تصرُّفهم واقتدوا بإيمانهم* إنَّ يسوعَ المسيحَ هوَ هوَ أمسِ واليومَ وإلى مدى الدهر* لا تَنقادوا لتعاليمَ متنوِّعةٍ غريبة. فإنَّهُ يحسُنُ أن يُثبَّتَ القلبُ بالنعمةِ لا بالأطعمةِ التي لم ينتفعِ الذينَ تعاطَوْها* إنَّ لنا مذبحاً لا سُلطانَ للذينَ يخدُمونَ المسكِنَ أن يأكلوا منه* لأنَّ الحيواناتِ التي يُدخَلُ بدمِها عن الخطيئةِ إلى الأقداسِ بيدِ رئيسِ الكهنةِ تُحرَقُ أجسامُها خارجَ المحلَّة* فلذلكَ يسوعُ أيضاً تألَّمَ خارجَ البابِ ليقدِّسَ الشعبَ بدمِ نفسه* فلنخرُجْ إذَنْ إليهِ إلى خارجِ المحلَّةِ حاملِينَ عارَهُ* لأنَّهُ ليسَ لنا ههنا مدينةٌ باقيةٌ بل نطلُبُ الآتية* فلنقرِّبْ بهِ إذَنْ ذبيحةَ التسبيحِ كلَّ حينٍ وهي ثمرُ شفاهٍ معترِفَةٍ

القديس باسيليوس الكبير

تعيّد كنيستنا لأسقف قيصرية كبادوكيا القديس باسيليوس الكبير في الأول من كانون الثاني، ومرة ثانية كأحد الأقمار الثلاثة في الثلاثين من الشهر نفسه، مع غريغوريوس اللاهوتي ويوحنا الذهبي الفم.

ولد أبونا القديس باسيليوس سنة ٣٢٩ للميلاد في قيصرية كبادوكيا لأسرة وافرة الغنى والجاه، غذاؤها اليومي الإيمان والتقوى وعيش الفضيلة. ولأن الشجرة من ثمارها تُعرف، ارتفع من كنف العائلة ثلاثة قديسين هم إلى جانب باسيليوس أخته البارة ماكرينا (١٩ تموز) وأخوه غريغوريوس النيصصي (١٠ كانون الثاني).

أمضى باسيليوس صغره في قيصرية الجديدة يتلقى بذار الإيمان القويم من والدته وجدته، التي كانت تلميذة للقديس غريغوريوس العجائبي (١٧ تشرين الثاني)، ونال من والده الخطيب المفوّه ما تيسر من علوم تلك الأيام وبرع فيها كلها. مع مرور الأيام كان باسيليوس، على مثال السيد الأسمى، ينمو ويتقوّى بالروح ممتلئًا حكمة (لو ٢: ٤٠). مات الوالد فارتحل باسيليوس إلى مدن العلم في زمانه طالبًا كبار المعلمين يتتلمذ عليهم، وصولاً إلى أثينا مدينة الفلسفة والخطابة والعلوم، ليجد شهرته قد سبقته إليها.

سنة ٣٥٦ عاد باسيليوس إلى موطنه ليجد بيت العائلة قد استحال ديرًا نسائيًا نواته والدة القديس وأخته. دعوات البارة ماكرينا الملحة ومآثر النساك الذين كانوا قد استوطنوا صخور كبادوكيا ينشدون التوحد في الله، وتعمق باسيليوس في تأمل الأسفار المقدسة، كل هذه اجتمعت ليكتشف القديس هزالة العلوم الأرضية وقلة جدوى الاستثمار فيها. ترك الخطابة والتعليم، تقدّم إلى العماد المقدس، وعقد العزم على اعتناق الرهبنة وسافر يتنقل بين مواطنها الزاهرة آنذاك، في مصر وفلسطين وبلاد ما بين النهرين. حيثما حل بين رهبان تلك الديار كان باسيليوس يجمع من خبرات من التقاهم أصول

العدد ٥/٢٠٠٥

الأحد ٣٠ كانون الثاني

تذكار آبائنا الأجلاء في القديسين معلّمي المسكونة باسيليوس الكبير وغريغوريوس الثاولوغس (المتكلم باللاهوت) ويوحنا الذهبي الفم

اللحن الثاني

إنجيل السَحَر الثاني

لاسمهِ* لا تنسَوا الإحسانَ والمؤاساةَ فإنَّ اللهَ يرتضي مثلَ هذه الذبائح.

الإنجيل

(لوقا ١٩: ١-١٠)

في ذلك الزمانِ فيما يسوعُ مجتازٌ في أريحا إذا برجُلٍ اسمُهُ زكَّا كان رئيساً على العشَّارين وكان غنيًّا* وكان يلتمسُ أنْ يرى يسوعَ مَن هو فلم يكن يستطيعُ من الجمع لأنَّهُ كان قصيرَ القامة* فتقدَّمَ مسرعاً وصعد إلى جمَّيزةٍ لِيَنْظُرَهُ لأنَّه كان مُزمعاً أن يجتازَ بها* فلمَّا انتهى يسوعُ إلى الموضعِ رفعَ طَرْفَهُ فرآهُ فقال لهُ يا زكَّا أسرِعِ انزلْ فاليومَ ينبغي لي أن أمكُثَ في بيتك* فأسرعَ ونزَلَ وقَبِلَهُ فرحاً* فلمَّا رأى الجميعُ ذلك تذمَّروا قائلين إنَّهُ دخلَ ليَحُلَّ عند رجلٍ خاطئٍ* فوقف زكَّا وقالَ ليسوعَ هأنذا يا ربُّ أُعطي المساكينَ نِصْفَ أموالي. وإن كنتُ قد غَبَنْتُ أحداً في شيءٍ أَرُدُّ أربعةَ أضعاف* فقال لهُ يسوعُ اليومَ قد حصلَ الخلاصُ لهذا البيتِ لأنَّهُ هو أيضاً ابنُ إبرهيم* لأنَّ ابنَ البشرِ إنَّما أتى لِيَطْلُبَ ويُخَلِّصَ ما قد هلك.

الجهاد والكمال الروحي حتى عاد فاستقرّ في بقعة مناسبة من موطنه الأصلي، لينضم إليه فيما بعد رفيق الجهاد غريغوريوس اللاهوتي، حيث عاشا معًا متوحدين في الصلاة وتأمل الكلمة والعمل اليدوي.

طالبو المشورة الصالحة راحوا يتقاطرون على باسيليوس ويزدادون، ومنهم من راموا مشاركته حياة التوحّد. ما لبث هؤلاء أن صاروا كثرًا حول باسيليوس فانكب القديس ينشئ لهم قانونًا رهبانيًا، ما زال حتى اليوم من القوانين الأساسية في الرهبنة الأرثوذكسية.

سنة ٣٦٠ استدعي باسيليوس إلى قيصرية من جديد، حيث سيم شماسًا. إذّاك بدأ يتسنى له أن يعي كم كانت كنيسة المسيح متألمة من كفر الهراطقة والمفسدين فصار همّها ملازماً إياه في كل حين.

إثر خلاف مع أسقفه أوسابيوس، بسبب تهاون هذا الأخير في التعامل مع الهراطقة، انكفأ باسيليوس إلى وحدته من جديد حتى سيامته كاهنًا سنة ٣٦٣، بيد أسقف قيصرية الجديد أفسافيوس. نميمة الحساد أوقعت بين باسيليوس وأسقفه، فآثر القديس الابتعاد إلى كبادوكيا حيث عمل على تنظيم حياة المجموعات الرهبانية في أديار شركة، معيدًا ترتيب قوانينهم وخدمهم الليتورجية، والعلاقات فيما بينهم ومع العالم.

سنة ٣٦٥ حلّ على مملكة الشرق امبراطور آريوسي هو فالنس، واتت معه القلاقل على الكنيسة، فثارت حمية باسيليوس ورجع متسالمًا مع أسقفه مكلّفًا برعاية شعب القيصرية. هناك استنفر القديس مواهبه العلمية القديمة لخدمة الحق الأوحد، وراح يعلّم ببلاغة تؤازر منطقها القاطع نعمة الروح القدس. إلى تلك الحقبة يرجع عدد من ألمع مواعظه، منها عظة في ستة أيام الخليقة تمجّد حكمة الله الخالق، وعظة في المزامير تحوي تعليمًا فائق البهاء حول عيش الفضائل وتأمل الأسفار الإلهية، وغيرها من المواعظ الكثيرة. سنة ٣٦٧ توالت على مدينته كوارث طبيعية تُوّجت بمجاعة فتاكة. عندها استبان القديس نهر محبة عاملاً بها ومعلّمًا لها، حتى إنه جعل الأغنياء يفتحون للجياع خزائنهم إثر موعظة له حول الغنى الأرضي. ميدانيًا وقف القديس كل طاقاته وخبراته العلمية، وصحته ووقته، لتنظيم توزيع المعونات على الفقراء ومداواة المرضى وتعزية المحزونين. سنة ٣٧٠، وبالرغم من التجاذبات والمنازعات الكثيرة آنذاك، انتخب باسيليوس أسقفًا على قيصرية فاعتبر الشعب هذا الانتخاب افتقادًا من القدوس.

أولى اهتمامات الأسقف الجديد كانت تأهيل أساقفته وكهنته، عقيدة وممارسة، لحماية شعب الله من سموم الهرطقات. ما لبثت قيصرية أن صارت، كمثل الإسكندرية آنذاك، حصنًا أرثوذكسيًا منيعًا، فثارت ثائرة الملك الآريوسي فالنس وقرر معالجتها بنفسه، موفدًا إليها أقرب معاونيه. بعد حوار ناري مع الأسقف القديس، لم يخلُ من تهديد ولا وعيد، ارتدّ مودستوس رسول الملك خائبًا. يضيق بنا المكان هنا لتعداد مواجهات القديس مع الملك الآريوسي، وفي كل واحدة كان باسيليوس يخرج بنعمة الله وقوة الحق الأوحد منصورًا.

في المجال العقائدي استمر

تأمل

أيها الأحبّاء إن الذين يشتهون الصالحات لا يختلفون عن العطشى وبقدر ما لا يحظون بما يطلبونه يزداد عطشهم إليه. في الليل يتخيّلون كالعطشى الينابيع التي يتوقون إليها وعند طلوع النهار ينتقلون من مكان إلى آخر وعيونهم حائرة تطلب ما يشتهيه قلبهم. وكمثل المسافرين ساعة الحرّ الشديد، الذين يعبرون الأرض الجافة وبداعي العطش يتطلّعون إلى ينابيع المياه متسلّقين الجبال في كثير من الأحيان إلى أن يجدوا هناك عين ماء، وما أن يجدوها من بعيد حتى يفرحوا ويواصلوا سعيهم مسرعين إليها. ومن ثم يصلون إلى النبع ويروون عطشهم.

هكذا هو الحال مع محبّي المسيح. في النهار يلتمسون المسيح مشتهاهم عن طريق الأعمال الصالحة، وفي الليل يكون بقربهم عن طريق الصلاة، وخلال نومهم يشاهدونه يسير معهم في الحلم. عندما يرونه في الحلم من بعيد يبتهجون ويتهلّلون كالعطشى الذين يجدون ينابيع المياه المشتهاة. وعندما يستيقظون من النوم يرغبون في الرقاد

باسيليوس يلاحق الآريوسيين وغيرهم من المارقين يستأصل زرعهم أينما وجد، ويعمل على خلاص نفوسهم أيضًا، وقد هدى منهم بتعاليمه الثاقبة ومحبته الفياضة كثيرين. قلنا آنفًا إنه استعمل كل ما تلقاه من علوم دنيوية لخدمة الإنجيل، فكانت في يده السلاح الأمضى. القديس باسيليوس الكبير هو أول الآباء الأرثوذكسيين الذين أعلنوا صراحة وعلّموا أن الروح القدس هو إله تام، وهو أحد الثالوث القدوس وله طبيعة الآب والابن ذاتها، وذلك دحضًا لتعاليم مقدونيوس وغيره من ناكري ألوهة الروح القدس. من رسائله التعليمية الكثيرة (فاقت الـ ٣٠٠)، للقديس باسيليوس رسالة حول معرفة الله تُعتبر مستندًا أساسيًا للاهوت التنزيهي الأرثوذكسي. هذا الأب الجليل استقى من عيش الكلمة والأسرار شركة وطيدة مع السماويات، فبات معلّمًا يحكي لاهوتًا رآه وعاشه، لا لاهوتًا أنتجه العقل البشري يحكي عن الله ولا يفهم من الله شيئًا. لاهوت القديس باسيليوس ليس في أي وجه من وجوهه معزولاً عن خلاص الإنسان وتأليهه. فهو أيقن أن أسرار السماويات إن كُشفت فلنخلص لها، ومن هنا أهمية سلامة العقيدة لكي لا يكون الإنسان بسبب جهله عابدًا لإله وهمي لا حول في يده ولا قوة. في تعليم القديس باسيليوس حديث كثير عن الإنسان وكينونته، الإنسان الذي هو أسمى مخلوقات الله وغاية كل أعماله الخلاصية.

الإنسان الذي أحبه الله حتى الفداء احتل لدى باسيليوس المكانة الكبرى. فبالرغم من اهتمامه بالتعليم والتأليف ما انفك القديس يرعى حاجيات شعبه، لاسيما المعوزين والمتألمين، في كل دقائقها، وحتى قبل سيامته أسقفًا. فقد أنشأ مثلاً، وهو بعد كاهنًا، «مدينة محبة ورحمة» شاسعة تضمنت مستشفى ومدرسة ومأوى للبرص ومضافة للغرباء، في وسطها كنيسة ليبقى المسيح هو الكل في الكل. قداسته ما خفيت على أحد، ونعمة الله عليه تجلّت منظورة لكثيرين. مثالاً على ذلك يروي القديس أفرام السرياني الذي عرف باسيليوس عن كثب، أن هذا الأخير وبينما كان يعظ كانت تقف على كتفه يمامة بيضاء تملي عليه الكلمات. وبينما كان يحتفل بسر الشكر كان يصبح كعمود نار يصل الأرض بالسماء.

ما زالت الكنيسة الأرثوذكسية حتى الآن تحتفل بالقداس الإلهي الذي كتبه (آحاد الصوم الكبير، الخميس والسبت العظيمين وبرامونيَ الميلاد والظهور وفي عيده في اليوم الأول من شهر كانون الثاني) وتستعمل الكثير من الصلوات التي نظمها.

سنة ٣٧٩، قوي المرض على الجسد المضنى نسكًا وأتعابًا فسلّم القديس باسيليوس الكبير الأمانة لربه وهو بعد في التاسعة والأربعين، وأعلنت الكنيسة قداسته رسميًا بعد سنتين فقط من رقاده.

«الآن تطلق عبدك»

في النص الإنجيلي الذي يروي حدث تقدمة السيد طفلاً إلى الهيكل، يبرز شيخ تقي «ينتظر تعزيةَ إسرائيلَ والروحُ القدسُ كان عليهِ؛ وكان قد أُوحيَ إليهِ بالروحِ القدسِ أنَّهُ لا يرى

من جديد لكي يحصلوا مرّة أخرى على الرؤيا نفسها.

هكذا هو الحال أيضاً مع زكا الذي قرأنا عنه في إنجيل اليوم. انظروا إليه كيف يركض والشوق الإلهي يُلهبه. يصعد على الشجرة ويتطلع إلى يسوع حتى يرى النبعَ المحيي. وعندما يرى زكا الرب تريح الرؤية نفسه وتندّي قلبه المشتاق.

انتبه أيها الأخ الحبيب إلى شوق نفسه. لم يستطع أن يراه بسبب الجمع لأنه كان قصيرَ القامة. يركض إذاً إلى الأمام ويصعد على جميّزة لكي يرى يسوع الذي كان مجتازاً من هناك. إن زكّا القصير القامة والكثير المعرفة كان يلتمس أن يرى المسيح. كان يشتهي أن يرى الله فيما بين البشر. أن يرى ذاك الذي وهب السموات، الذي أبدع الملائكة، أن يرى واهبَ النور الفائق السماوي يسير بخطى البشر.

كان يلتمس أن يرى كيف أن شمسَ العدل الجالس على السحاب قد أنار أعين قلب المؤمنين. يلتمس أن يرى يسوع الإله، الجميل، المشتهى، الحلو، الذي مجرّد اسمه يشير إلى الفعل. أن يرى الخروف الموشح صوفه بالبرفير الأرجواني الذي بدمه أفتدى المسكونة وبصوفه ألبس العراة من جيل آدم حتى النهاية... أن يرى معطي الحياة للكهنة ومقيم لعازر.

القديس يوحنا الذهبي الفم

الموتَ قبلَ أن يرى مسيحَ الرَّبِّ» (لو ٢: ٢٥-٢٦). إن أهميَّة سمعان الشيخ وعظمة دوره خادماً للسر الخلاصي تتجليان في الأنشودة التي تلاها حاملاً على ذراعيه الطفل الإله، وهي على بساطتها تحوي تعليماً محورياً في محطات تاريخ الخلاص. «الآن تُطلق عبدك يا سيّدُ حسبَ قولِكَ بسلام، لأن عينيَّ قد أبصرتا خلاصَكَ الذي أعددتَهُ قدَّامَ وجهِ جميعِ الشعوبِ نورَ إعلانٍ للأممِ ومجداً لشعبكَ إسرائيلَ» (لو٢:٢٩-٣٢).

بهذه الأنشودة، يعلن سمعان ممثلاً «إسرائيل الأمين» (أي الشعب المنتَظِر بأمانة مجيء خلاص الله) فرحه بتسليم الأمانة، بعد طول انتظار. وإسرائيل الأمين لمواعد الله عرف أن لا دور له إلا تمهيد السبيل لتحقق الفداء الحاصل بتجسد الكلمة ابن الله. نقول «إسرائيل الأمين» لأن ثمة من غلبت عليهم قساوة أعناقهم فباتوا يفسرون محطات التاريخ الإلهي على ما يشتهون، وكأنهم أرادوا احتكار الله بل وتطويعه تعالى لتاريخ أرادوه هم لأنفسهم. «الآن تطلق عبدك يا سيد بسلام» قالها سمعان لأنه بتقواه نال عند الخالق دالة أن لا يغادر العالم قبل أن يرى بعين الجسد المسيح مولوداً، وبنور الروح القدس خلاص الخليقة بأسرها، عهداً جديداً للبشرية يفتتحه تجسد الإله وقد حان «ملء الزمان». إسرائيل الأمين يختم مهمته بلسان سمعان فرحاً، تماماً كما سيفعل المعمدان فيما بعد خاتماً زمن الأنبياء بقوله: «إذاً فرحي هذا قد كمِلَ، ينبغي أنَّ ذلكَ يزيدُ وأنّي أنا أنقصُ» (يو ٣:٢٩-٣٠).

ابن الله المولود من العذراء إنساناً يأتي من عند الآب نوراً لا لإسرائيل وحده بل للأمم كلها، فالمشرق لا يمكنه أن يحتكر نور الشمس وإن كانت من عنده تطلع. هذا أيقنه إسرائيل الأمين فبات مطمئناً إذ إنه «يأتي الفادي إلى صهيون وإلى التائبين عن المعصية في يعقوب»، تحقيقاً لقول الرب بنبيّه أشعياء (٥٩:٢٠). قساوة القلب التي أصابت بعض إسرائيل لا يمكنها أن تزول إلا متى أشرق نور الخلاص على الأمم التي كانت لم تؤمن بعد، فينال إسرائيل عندئذ خلاصه الموعود إذ يكون قد أتم ما تأسس من أجله (رو ١١:٢٥).

إسرائيل الأمين لمواعيد الله مستمر على مدى العصور، في جماعة المؤمنين الذين عبروا بالمعمودية من عبودية البشرة الساقطة إلى نعمة الاتحاد بالمسيح والكمال فيه. لذا فالمؤمن الحقيقي لا يطلب مجداً إلا مجد الله، فيعمل بالتالي مساهماً للمسيح في عمله الخلاصي لأنه متى امتلأ من نور الإنجيل يصبح بذاته نوراً يشرق لكثيرين.

عيد دخول السيد إلى الهيكل

في الثاني من شباط تُعيِّد كنيستنا المقدسة لتذكار دخول ربنا يسوع المسيح إلى الهيكل. للمناسبة يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة صلاة الغروب عند السادسة من مساء الثلاثاء ١ شباط وخدمة القداس الإلهي عند التاسعة والنصف من صباح الأربعاء ٢ شباط في كنيسة القديس نيقولاوس في الأشرفية.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:
www.quartos.org.lb